رؤى ثقافيَّة متجددة

د.عزة القصابي

عندما نُقرِّر السَّفر والتِّرحال لأي بُقعةٍ في العالم فإنَّنا نضع نصب أعيننا الموقع الجغرافيّ للجهة المقصودة، والعوامل الجاذبة فيها قبل التوجُّه إليها، مثل: التنوُّع الثَّقافي في تلك الدَّولة، ودرجة الأمان الاقتصاديّ والسياسيّ فيها. وهذه المحفِّزات وغيرُها لا يُمكن أنْ تعمل بمعزلها، ولكنّها تمتزج برؤى المجتمع الثَّقافيَّة.

يُوصف مفهوم "الثَّقافة" بأنَّه ذو معنى مطَّاطيٍّ ومتشعِّب يصعب القبض على لجامه؛ وهو يتضمَّن الأدب واللُّغة والتُّراث والتَّاريخ والفنون الشَّعبيَّة والعادات والتَّقاليد والأزياء والهويَّة الوطنيَّة بشكلها الشمولي.. وغير ذلك... وتزخر "سلطنة عُمان" بتنوُّع جغرافي هائل يتباين من بقعةٍ لأخرى... وهذا الاختلاف يولِّد تناغمًا ثقافيًّا فريدًا يجعل الآخرين يُقبلون على زيارته والتجوال في فضاءاته الرحبة بكل شغفٍ وحبور.

(عُمان وجهة ثقافيَّة... رائدة بهويَّة راسخة)...عنوان رؤية عُمان 2040... وهو عنوان يكتنز عناصر ومفردات الثَّقافة العُمانية، التي تُحفِّز العُمانيين على التشبُّث بهويَّتهم الوطنيَّة، والتأكيد على عناصرها الراسخة التي تستلهم مفرداتها الجماليَّة والحضاريَّة من المجتمع العُماني الأصيل. ولعل الإشهار عن وضع حجر تأسيس مشروع «مجمَّع عُمان الثَّقافي» مؤشرًا على اهتمام سلطنة عُمان بالثَّقافة العُمانية التي تشمل الآداب والفنون. ويتكوَّن المجمَّع من ثلاثة عناصر رئيسة؛ هي «هيئة الوثائق والمحفوظات الوطنيَّة» التي

تشكّل بالتأكيد مُعينًا توثيقيًّا وكنزًا وطنيًّا لعددٍ من الوثائق والمخطوطات العُمانية، والتي سينهل منها الباحثون في التَّاريخ والتُّراث العُماني. وثاني هذه المكونات «المكتبة الوطنيَّة» التي بالتأكيد ستكون مصدرًا شاملًا لصنوف المعرفة؛ ورقيًّا ورقميًّا... لكون التحوُّل الرقمي والمصادر المعلوماتيَّة أصبحت محل شغفٍ واهتمامٍ لدى أجيال اليوم، فضلًا عن توثيق العديد من الكتب وإيجاد نسخة إلكترونيَّة لها حتَّى يسهل الوصول إليها من كافة دول العالم رقميًّا، كما هي الحال مع مكتبة الكونجرس وكثيرٍ من الجامعات العريقة في العالم. وثالثها «المسرح الوطنيّ» الَّذي يُشكّل قيمة ثقافيَّة وفنيَّة لتقديم الفعاليَّات وإطلاقها على منصَّته، فضلًا عن تقديم العروض المسرحيَّة واستضافة المهرجانات العالميَّة والعربيَّة... كما نأمل أنْ يوضع برنامج متكامل للاهتمام بالمشاريع الفنِّيَّة الاحترافيَّة، مثل: الأوروبيات الوطنيَّة والدراميَّة التي تعكس حضارة عُمان وتاريخها العريق.

وانسجامًا مع رؤى وتطلُّعات «الاستراتيجيَّة الثَّقافيَّة" التي أطلقتها وزارة الثَّقافة والرِّياضة والشباب والمتضمِّنة الأُسس والمساقات الثقافيَّة في المؤسسات الثَّقافيَّة الرسميَّة والأهليَّة، الساعية إلى تعزيز لغة الحوار والتواصل مع الآخرين. والحرص على التعدديَّة والانفتاح على الثَّقافات العالمية القائم على الإبداع والابتكار وحرية التعبير.

جميع ذلك، يؤكِّد انفتاح سلطنة عُمان على العالَم وفق رؤى وحمولاتٍ فكريَّةٍ وثقافيَّةٍ تعبّر عن الرسائل الحضاريَّة التي تصل للزائر والمتابع لمواقع سلطنة عُمان الافتراضيَّة عبر المنصَّات الرقميَّة، والتي تتزامن مع رؤى الاستراتيجيَّة الثَّقافيَّة، الساعية إلى احتضان نتاجات المثقَّف العُماني في كافة المجالات الإبداعيَّة، مثل: النَّشر والأدب والترجمة ومصادر المعلومات، فضلًا عن الاهتمام بالفنون البصريَّة والأدائيَّة والتُّراثيَّة التي تعبّر عن روح الإنسان العُماني.

وتسعى "الاستراتيجية" إلى الارتقاء بالوعي الثَّقافيّ لدى العاملين في القطاعات الثَّقافيَّة؛ فالمثقَّف والعامل في الشأن الثَّقافيّ يشكّلان وجهيْن لعُملةٍ واحدة، لذلك فإنَّه من المهم تأهيل العاملين في المؤسسات الثَّقافيَّة وتدريبهم؛ حتَّى يستطيعوا استيعاب القضايا الثَّقافيَّة، مع استحداث تشريعات وقوانين ولوائح

توظّف التكنولوجيا بأسلوب يخدم المثقّف ومشاريعه الإبداعيّة الاستثماريّة حتّى يكون قادرًا على رفد وإنتاج أعماله الخاصة.

فضلًا عن ذلك، هناك برامج تنفيذيّة للمشاريع الاستراتيجيّة ذات طابع ثقافيّ واقتصاديّ؛ لتحفيز المبدع العُماني على المشاركة في الملتقيات والمعارض البصريّة والمهرجانات الثّقافيّة ذات الصلة بالمناسبات الوطنيّة والإقليميّة والدوليّة، إضافةً إلى الاهتمام بالكتاب والطباعة والترجمة ودعم الباحثين وصقل مهارتهم ذات الصّلة بالجانب الإبداعيّ الثّقافيّ على المستويَيْن المحليّ والخارجيّ. إضافةً إلى الاهتمام بالحوكمة الثّقافيّة التي تقوم على استحداث اللوائح والتشريعات والقوانين والسياسات المنظّمة للعمل الثّقافيّ، وتنمية الخدمات والمحتوى الثّقافيّ الإلكتروني لهذه المشاريع.

وتنبثق الرؤى الاقتصاديّة والثّقافيّة لسلطنة عُمان من شعار (عُمان وجهة ثقافيّة... رائدة بهويّة راسخة)، والمستلهمة من نشاطات المبدع العُماني والبُنى الاستثماريّة وتنشيط الاقتصاد الثّقافيّ أو ما يُطلق عليه عالميًّا الاقتصاد البنفسجي الذي يمزج بين الثّقافة والاقتصاد، وكان أول ظهور لهذا المصطلح في مقالة نشرتها صحيفة (لوموند) Le Monde الفرنسيّة برعاية اليونسكو عام 2001م، على هامش المنتدى الدولي الأول للاقتصاد البنفسجي.

ومن أهداف هذا المنتدى الاهتمام بما يُسمَّى (أنسنة الاقتصاد) والبحث عن الجوانب الإنسانيّة في المنتج المادي، والآلي الذي جاء نتيجة الطّفرة الاقتصاديّة وثورة الاتصالات الرقميّة، خاصة بعد تحوُّل العالم إلى أرقامٍ ورموزٍ تفتقد إلى الرؤى الإنسانية، وهذا وَلَّد اتّجاهًا يسعى إلى التركيز على «الإنسان» في مُعترك البيئة العمليّة، والتفكير في كيفية البحث عن رؤى إنسانيّة وجماليّة في ظل التّنمية الاقتصاديّة، وجعلها مصدرًا للإبداع الإنساني لكون المبدع هو أساس الإنجاز والرُّقي وتقدُّم الحضارات البشريّة.

وأكّدت الاستراتيجيّة الثّقافيّة الصادرة عن وزارة الثّقافة والرّياضة والشباب في محاورها وأهدافها على أهمّيّة تعزيز الوعي بأهميّة الصّناعات الاقتصاديّة المتّصلة بالمُبدع العُماني ليُصبح الإنتاج ذا قيمة ربحيّة؛ فمثلًا الفنان التّشكيلي يقوم برسم لوحاته بإبداعٍ إنسانيٍّ وجماليّ، وفي الوقت ذاته، يُمكنه الاستفادة من ريع لوحاته في أثناء إقامة المعارض أو رُبَّما الفوز في إحدى المسابقات البصريّة.

وبالمثل فإنَّ المتخصّصين في مجالات السّينما والتّلفزيون والمسرح والعاملين في صناعة السّينما الدراميّة والرُّوائيّة والوثائقيّة، يمكنهم تحقيق أرباح من خلال عرض أفلامهم في دُور السينما والتسويق لها، إضافةً إلى تقديم العروض المسرحيّة والفنّيّة وسط الجماهير وتحقيق مكاسب من شبّاك التذاكر -إذا وُجِد-، بالإضافة إلى توظيف التّكنولوجيا وتقديم التّسهيلات للمشاريع الفنّيّة والأدبيّة لتحفيز الإنتاجَيْن الثّقافيّ والفنّيّ على حد سواء.

وهذا يتوافق مع أهداف اتّفاقيّة (حماية وتعزيز تنوُّع أشكال التعبير الثّقافي) التي اعتُمدت في باريس عام 2005م، وانضمّت سلطنة عُمان إليها عام 2007م، وهي تسعى في بنودها إلى تعزيز وتطوير والحفاظ على هويّة الخدمات الثّقافيّة فيها، وتهيئة البيئة المناسبة التي تكفل ازدهار الثّقافات وتفاعلها. وهذا يعني أنَّ «الثّقافة» أصبحت من السّلع والخدمات التي يُمكن أنْ تحقق إيرادات ربحيّة تضاهي المنتجات الماديّة الأخرى التي يمارسها المجتمع.

وفي المُجمل، تظلُّ تطلُّعات ورؤى المثقّفين العُمانيين في شغفٍ إلى مزيدٍ من الإنجازات والبرامج التي تتماهى مع وعيهم الجمعي الذي لا ينفصل عن واقعهم الاجتماعيّ والاقتصاديّ. وبالتأكيد إنَّ أساسيّات الاستراتيجيّة الثّقافيّة ومجمّع عُمان الثّقافي القادم، وغيرهما من الجهود المبذولة، تسعى للنهوض بالمثقّف العُماني، وعليه في الوقت ذاته أنْ يُطوِّر قدراته الإبداعيّة باستمرار، حتى يحقق الاكتفاء المعرفيّ والاقتصاديّ الّذي يتطلّع إليه.